مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ ق

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة ق

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة ق

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا
لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً
وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

ابتدأت سورة: ق. بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم، وسورة الجاثية. فبدأت بقوله تعالى ﴿ قٓ ﴾ وهو حرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرف واحد من الأحرف، لا يعرف شيئاً عن دلالة ومقصد الافتتاح به، ليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

([1]) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة: ق. بحرف من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ قٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أكد وأوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك بالقسم بالقرآن الذي من صفاته أنه كتاب مجيد. فقال عَزَّ وجل ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ فابتدأت السورة بالقسم من الله تعالى بالقرآن الموصوف بالعظمة من المجد. وأفاد حرف الواو المتقدم على القرآن العظيم، في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ أنه للقسم، والْمُقْسَم به هو القرآن العظيم. وجواب القسم محذوف، لدلالة ما بعده عليه.

بل من عمق البيان أن استوعب جواب القسم الدلالات المتنوعة التي ذهب إليها أهل العلم، حيث ورد عنهم أن جواب القسم هو قوله تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ وقيل: هو قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ وقيل: هو قوله تعالى ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وهو استبعادهم نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم[٣] وقيل: أنه مُضمر تقديره: لَيُبْعَثُنَّ بعد الموت. قاله الفراء، وابن قتيبة. ويدل عليه قول الكفار ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[٤] وهذا من عمق السياق الذي استوعب تلك الدلالات. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وجواب القسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام، فيدل عليه ابتداء السورة بحرف ﴿ قٓ ﴾ الْمُشْعِر بالنداء على عجزهم عن

---

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠١/٢١-٤٠٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٧)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٠/٧)

معارضة القرآن بعد تحديهم بذلك[١] مما يبين أن استيعابه لِمَا ذكره أهل العلم هو نوع من الإعجاز البياني، الذي يدل على أن القرآن كتاب من عند الله تعالى، بإعجازه الذي يشهد له عجز المخلوقين جميعاً من أن يأتوا بمثله.

وقوله تعالى في وصف القرآن بأنه ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ ما يفيد كمال المدح والثناء من الله العزيز العظيم على كتابه القرآن المجيد. وهي من صيغ المبالغة، التي تعني أنه بلغ غاية المجد الذي لا بعده مجد، ولا سبقه أمجد منه. فهو القرآن الذي قد تناهى في المجد وعلو المكانة والمنزلة والشرف، والبركة، والعلم، والوعظ، والترغيب والترهيب. وبما يؤكد شدة حاجة الناس إلى هذا المتصف بالمجد في أحكامه، وقضائه، ومكارم أخلاقه، وهدايته إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة. فهو الذي يصل به العبد إلى الجنة إذا اتبعه، وسار بهديه. وتعني دلالة ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ أنه القرآن الْمُشَرَّف، الشريف، رفيع القدر والمنزلة. فهو بأعظم اللغات مكانة وشرفاً، وفصاحة وبلاغة، وبأدق التشريع وأحكمه، بل هو هداية كاملة لمن اتبعه، وشفاء للقلوب والأبدان لمن أخذ به، وهو أرفع التشريع خُلقاً وأحكاماً، وأبلغ وأعجز في نظمه وتراكيب كلامه. فهو الكتاب المعجز. مما يدل على أن هذا القرآن كنز عظيم، وأن من أخذ واعتنى به فقد أخذ بخير الدنيا والآخرة، وأنه رفعة وعزة للمؤمنين، ولكل من اعتنى وأخذ به. وأنه يرفع ويرتفع ويعلو ولا يُعلى عليه. والقسم من الله تعالى بالقرآن العظيم بيان بعظمة منزلته وشأنه.

ثم يخبر الله تعالى عن تعجب المشركين أن جاءهم رسول منهم لينذرهم عقاب الكفر، فقال تبارك وتعالى ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ بل تعجَّب المكذبون أن جاءهم منذر منهم، لينذرهم عذاب ربهم لمن كفر ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان تعجبهم كما قال تعالى عنه ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ شيء غريب، ومستغرب، يدعو إلى التعجب. فهذا الاستغراب والتعجب منهم لكونه صلى الله عليه وسلم نبياً ومنذراً لهم من عذاب الله تعالى إن استمروا في كفرهم وغيهم، ولم يتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم. فوجه الاستبعاد والاستغراب واقع على كونه صلى الله عليه وسلم منهم ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فهو منهم ومن جنس البشر.

وكذلك تعجبهم من كونه ﴿مُّنذِرٌ﴾ لهم من العذاب، فإن ما أنذرهم به صلى الله عليه وسلم من البعث بعد الموت والحساب والجزاء كان أيضاً باعثاً لهم على التعجب. أي: فإنما الذي تذكره لنا من الحساب والعذاب هو أيضاً مثار تعجب واستغراب، من أن تعود أرواحنا وأجسامنا كما كانت بعد أن بُليت، وأصبحت تراباً. وهذا الاستغراب منهم بسبب عدم تدبرهم لعظيم ما خلق الله تبارك وتعالى من آياته الكونية المبثوثة في الكون، وفي أنفسهم، ومن ذلك خلقهم من ماء مهين، وإحياء الأرض بعد موتها. بل كل ما في الكون يبين أن

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٥١٥)

الله تعالى على كل شيء قدير. وأنه يجب على المخلوق ألا يقيس قدرات الخالق على قدرات المخلوقين. فإن ذلك من نقصان التعقل والتفكير، إذ يؤدي ذلك إلى المزيد من الجهل والكفر والجحود.

ومن دقائق السياق وعظمته أن بدأ البيان بحرف الاستئناف ﴿ بَلْ ﴾ فيثبت الله تعالى ما هو ضد تعجبهم بالاستنكار ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ ﴾ أي: أن استنكارهم هو على سبيل الاستغراب، لمخالفته ما هم عليه من منطق الجهل والجحود، بما يفيد المبالغة منهم في استعلائهم بمفاهيمهم وآرائهم على الحق المبين، إلى درجة أن بلغ إنكارهم هذا المبلغ العجيب من الإنكار والتكذيب لنبوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومحل التعجب هو ﴿ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ فإن محل تعجبهم هو أن يأتيهم رسول منهم. فإنهم ينكرون أن يكون الرسول بشراً منهم، فيريدون رسولاً من الملائكة. وكأن الشأن لهم، في اختيار من يريدون، وكيف يريدون، وحال من يريدون. فجعلوا من أنفسهم حكماً على مراد ربهم، فعتوا عتواً كبيراً. ثم يؤكد سبحانه وتعالى قوة تعجبهم الذي أودى بهم إلى الاستعلاء والتكبر على من أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وبالحجج والبراهين ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ إنه شيء مستغرب، يدعو إلى التعجب. لمبعثه صلى الله عليه وسلم رسولاً منهم، ومن جنس البشر. وتدل جملة ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أنه عظيم في نكارته، فقد بلغ مبلغاً لا يوافق عليه أحد ولا يصدقه كما يزعمون، فإن أحق ما يستحق هو الاستبعاد والاستنكار حسب زعمهم.

ثم بعد أن ذكر سبحانه وتعالى تعجبهم الذي قال عنه عَزَّ وجل ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ينتقل بعد ذلك البيان إلى تقرير وتأكيد استنكارهم للبعث بعد الموت، حيث قال الله تعالى عنه: أنهم قالوا في تعجبهم ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ فهل يمكن إذا متنا، وتحولت أجسادنا وصارت تراباً أن تعود لنا الحياة مرة أخرى. إن هذا الرجوع لأمر مستبعد قطعاً، ومستحيلاً. فأظهر الله تعالى قولهم بطريق السؤال، وهو استفهام إنكاري منهم ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ سؤال استبعاد، مما يفيد أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنذرهم، وحذرهم بالبيان الصادق، بأنهم سوف يبعثون بعد موتهم، ويحاسبون هم وغيرهم: الأولين والآخرين، ويُجَازَى كل أحد بما كسب، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فكل نفس بما كسبت رهينة.

ثم أكدوا استبعادهم للحياة بعد الموت بما قاله الله تعالى عنهم، إذ قالوا ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي: أن هذا القول بعيد عن تصديق العقول والأفهام له. فهو استبعاد منهم بصيغة التعجب الإنكاري. ذلك رجوع

مستبعد لا نقول ولا نعتقد به، فكيف تقول به أيها النذير؟ فقرروا الاستبعاد المخالف للحقائق من الآيات والحجج التي أوضحها وبينها لهم الرسول صلى الله عليه وسلم. وهنا لم يتم ذكر المستبعد، وهو البعث، الذي أغنى عنه دلالة الرجوع ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾ وأفادت دلالة ﴿بَعِيدٞ ﴾ المبالغة في نفي الرجوع بالبعث بعد الموت. فهو أمر مستبعد تماماً، ومقطوع به، كما يتصورون ويظنون. مما يبين مخاطر العناد والاستكبار على المعاند، فإنه يجعله يتطاول على الحقائق من أجل أن ينتصر لمراده. ثم يتزين له سُوء فكره وافترائه وعناده وجداله. مما يفيد أن على المرء أن يقابل الحقائق بالتأمل والتفكير الصحيح، والمقصد الحسن. وألا يجعل الحسد والعناد والاستكبار يلتف به، ويطويه، فيغيب به عن الحقائق، ثم يفوت عليه الخير. وهذا ينطبق في كل شأن وأمر، بأن على الإنسان أن يتعقل عندما يسمع.

ثم يرد الله تعالى على من أنكر البعث بعد الموت ببيان عظيم عن كمال علمه وقدرته إلى أقصى ما يكون. فقال تبارك وتعالى ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴾ قد تحقق في علمنا ما تأكله الأرض من أجسادهم، فلا يغيب ولا يضل عن علمنا وسلطاننا شيء من ذلك. فلا يخفى علينا تفرق الأبدان وتمزقها، أو احتراقها، وإلى أين ذهبت وصارت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم، وأشعارهم[1] وكذلك تشمل الآية الكريمة دلالة أنه قد تحقق في علمنا من يموت منهم ومن يبقى إلى حين. قال السدي رحمه الله تعالى: النقص هنا الموت. يقول: قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى، لأن من مات دُفن، فكأن الأرض تنقص من الناس[2] وبالتالي فإن ربكم الذي بلغت إحاطة علمه حتى ما تأكله الأرض من أجساد الموتى، فإن ذلك العلم والإحاطة يدلان على أنه لا يتعذر ولا يصعب عليه عَزَّ وجل إعادتهم كما كانوا. ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك بقوله جَلَّ جلاله ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴾ ومع علمنا بشأنهم، فإن لدينا كتاب حافظ لذلك، فهو محفوظ فيه كل شيء. وبالتالي كيف تنكرون الإعادة مع عظيم علم وقدرة ربكم سبحانه وتعالى. فنفيكم وتعجبكم هو مخالف لعظمة ربكم سبحانه وتعالى.

ومن عظيم حكمة الله تعالى ورحمته أنه مع عظيم جُرمهم إلا أنه يتعامل معهم برحمته، فيعلمهم، ويقيم عليهم الحجة بالأدلة والبراهين. ابتغاء خروجهم من الكفر إلى الإيمان. مما يعلم العباد الصبر على الدعوة، والمحاولة مع المعاند، ولا يُوقفه اليأس. كما هو منهج الله تعالى مع المكذبين، وما كان عليه الصلاة والسلام من الصبر عليهم، وتكرار الدعوة حتى دخل الكثير من المشركين في الإسلام. كما يعطي ذلك منهجية في عموم التعامل.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٤/٢١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٧)

ثم يقرر سبحانه وتعالى عنادهم، ويكشف استكبارهم، بأنهم كذبوا بالحق الواضح عندما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال عزَّ وجل ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ بل إن شأنهم هو التكذيب بالقرآن العظيم الذي هو معنى الحق الذي كذبوا به ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ كذبوا بالقرآن الحق عندما تلاه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي: عندما أبلغهم به عليه الصلاة والسلام. بما يفيد إنكارهم لقوة حجج القرآن الكريم، الذي هو أعظم بيان، خاصة وأنهم أهل فصاحة وبلاغة، فيدركون أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه وتعالى. ولذلك كان شأنهم كما قال تعالى ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ في شأن مضطرب، وملتبس، ومختلط. لأنهم أمام كلام رب العالمين المعجز، الذي أبهرهم، وفي نفس الوقت يخالج نفوسهم الحسد، والأنفة، والكبر. ودليل ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فإن أعلنوا إيمانهم، فيعني ذلك أنهم قد تراجعوا عما هم عليه، وفي الوقت نفسه يمنعهم استكبارهم من ذلك، وإن صبروا وثبتوا على كفرهم خسروا الحق، وفاتتهم النجاة، ولحقهم العذاب، وبالتالي ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ في شأن مضطرب. وهذا هو حال كل من يعرف الحق، ويكابر عليه، سواء كان في الدين أو في غير ذلك من التعاملات البشرية. مما يفيد أن التواضع هو الذي يكسر الأمر المريج من النفوس، ويخلصها من ألمه وشتاته. والأمر المريج هو التردد، وما يلحقه ويتبعه من القلق والاضطراب. وقد أفاد حرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي تصدر مطلع الآية الكريمة الإضراب عن تعجبهم من البعث إلى تكذيبهم بالحق الذي هو آيات القرآن التي سمعوها وعرفوها. ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو انتقال بياني إلى عمق استكبارهم الذي أودى بهم إلى التكذيب بالقرآن الكريم.

ثم يزداد التوبيخ لهؤلاء الجاحدين بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت. فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ ألم يتأمل هؤلاء المكذبين كيف رفع الله تعالى السماء فوقهم، في بناء مُحْكَم، وجعلها على هذه الصفة العالية المرفوعة من غير أعمدة تعتمد عليها، وزينها بالمصابيح من النجوم والشمس والقمر، وخالية من التعرج والتشقق والتصدع. فلو تأملوا وتدبروا لأيقنوا بعظمة قدرة ربهم سبحانه وتعالى في إعادة الخلق، وعلى إعادة كل شيء كما يشاء تبارك وتعالى.

وقد ورد السياق الكريم بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معاني التوبيخ والتقريع لهم على عدم تأملهم في الآيات الكونية التي تُثبِت لهم أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في

السماء. وقد استهل البيان بأداة الاستفهام ﴿ أَفَلَمۡ ﴾ التي تثير الفكر إلى تدبر ما يُسألُون عنه، ثم أعقبه الإشارة إلى غفلتهم عن النظر إلى الأدلة الكونية ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ ﴾ فشمل النظر: الرؤية والمشاهدة البصرية بالعين، ونظر ورؤية البصيرة. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات أو الغيبيات التي يتم إخبارهم عنها، وما يتعلق ويرتبط بها من المغيبات، ليرتقي عقل المتلقي في التحليل والاستنتاج إلى الحقائق وإدراكها إدراكاً حقيقياً كما هو منهج القرآن الكريم. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات. فمن كانت قدرته عَزَّ وجل قد خلقت السماوات والأرض التي هي أمامكم، وهي في غاية الدقة والعظمة، فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة الخلق بعد الفناء سبحانه وتعالى.

فتضمنت الآية الكريمة إثارة عقولهم وعقول غيرهم إلى التأمل في كيفية بناء هذه السماء ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ أفلم يحصل لهم التأمل في خلق السماء؟ فإن لم يحصل لهم ذلك. فعليهم إذاً أن يتأملوا ذلك. فيقرر لهم سبحانه وتعالى ولغيرهم ما يُزيل ويمنع جحودهم للبعث والحساب والجزاء. وقد أفادت دلالة ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ استثارة الذهن لتقليب البصر والفكر في كيفية هذا البناء الذي تتجاوز مساحته العيون والأبصار، وإدراك العقول والعيون، ورصد عدد ما فيه من الكواكب والنجوم، وحركتها التي ازدانت بها السماء وتجملت. فإن دلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ تكشف لهم حقائق غفلتهم، ونفوسهم، وما انطوت عليه من الجهل والظلم والحسد والبغض. ودلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الإنسان ما يحيط به من عظمة الخلق، وشناعة تكذيبهم وبهتانهم المبين. ومجادلتهم للحق من غير حق، مع عظيم الجرأة على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالقول والطعن والتكذيب والجحود، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال.

فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، إذ يدرك بها الإنسان المنافع والمصالح، والخطأ والصواب، وأن ذلك وسيلة من وسائل المعرفة في اكتشاف الحقائق، وما تدل عليه. خاصة وقد بدأ التوجيه الكريم بجملة ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ ﴾ التي سبقت ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ وكذلك كيف زيناها ﴿وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ وكذلك ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ فهو شد للانتباه نحو التفكر والتعقل، وكذلك تنبيه حواس التلقي للالتفات نحو التبصر، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر بالنظر ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ ليكتشفوا ما هم عليه من الباطل، وردهم للحق الواضح المبين.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾ أنها تَلفِت الانتباه، كما أن دلالة ﴿كَيْفَ ﴾ قد زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿يَنظُرُوٓاْ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويُمْعِن النظر في آيات الله تعالى الكونية، فإنها تتعاضد مع آيات الله تعالى القولية. من أجل منع التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكه الذي جعله يكذب كذباً لا لبس في بهتانه، مع ظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أَنزل الحق، وعلى الرسول الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعوهم إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة وسياق.

وقد وصف تبارك وتعالى السماء بالبناء ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا ﴾ بما يفيد لفت انتباههم إلى خلق السماء في صورة البناء العظيم في ارتفاعه. لأن البناء من صفة السماء، ولتشمل بهذا الوصف الارتفاع والعلو الذي هو من خصائص البناء. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في سورة النازعات: ومعنى ﴿بَنَىٰهَا ﴾ رفعها. وكل شيء ارتفع فوق شيء فهو بناء[١] مما يبين دقة القرآن في اختيار الألفاظ، إلى درجة الإعجاز في بيانه وسياقه وبلاغته، ومضمون أدلته.

ثم لفت تبارك وتعالى الانتباه إلى جمال السماء، وبما وضع فيها من النجوم ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا ﴾ وذلك بتناثر الكواكب في فضائها، وهي النجوم المتلألئة كالجواهر المتناثرة بأضوائها في السماء، وتشمل الكواكب الثابتة، والكواكب السيارة، فتضيء بلمعانها الذي يخترق الغلاف الجوي، الذي هو جرم السماء الشفاف، فتضيء جمالاً لأهل الأرض. مع نعمة الاهتداء بها، إذ يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر. وهنا تظهر عظمة الخالق في عظمة الخلق وعظمة التدبير، وانتفاع الإنسان في الاستدلال بها على الوقت، وعلى الاتجاهات في ظلمات البر والبحر. ليستنتج منها المتأمل والمتدبر على عظمة الخالق، وأنه إله واحد سبحانه وتعالى، لا شريك له في ملكه، وبأن لا تُصرف العبادة إلا له وحده لا شريك له عَزَّ وجل. وأنه على كل شيء قدير، ومن ذلك البعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٥/٨)

ثم يلفت الانتباه تبارك وتعالى إلى دقة بناء السماء على عظيم مساحتها وارتفاعها، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي: خالية من التعرج والتشقق والتصدع. فلو تأملوا وتدبروا لأيقنوا بعظمة قدرة ربهم سبحانه وتعالى في إعادة الخلق، وعلى إعادة كل شيء كما يشاء تبارك وتعالى.

وبعد بيان ما يتعلق بشأن السماء وما فيها من زينة الكواكب، ودقة وجمال الخلق، يخبر الله تعالى عن الأرض التي عليها العباد ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فيلفت الله تبارك وتعالى أذهان وأبصار وبصائر عباده إلى الأرض، التي بسطها عَزَّ وجل لعباده، وما وضع فيها من الجبال الشاهقة الثابتة، فكانت أوتاداً للأرض، لتمنع تحركها بأهلها، فجعلتها راسية ثابتة، وكذلك يلفت الله تبارك وتعالى الانتباه إلى ما أنبت في الأرض من كل منبوت من الزروع، بشتى أنواعها وأشكالها، واختلاف ثمارها ومنتوجها، فلفت الله تعالى أذهان العباد وتفكيرهم وأبصارهم وبصائرهم إلى الأرض وما فيها من مكونات متظافرة ومتكاملة ليتحقق بها أنواع الخير لقاطنيها. فالحمد والشكر لله رب العالمين.

وبدأت الآية الكريمة بوصف سعة الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ ومَدُّ الأرض يشمل بسطها وتوسعتها، لأن المد هو البسط والتوسعة، ومنه مَد البحر، وكذلك: ظل ممدود، ومد اليد: أي بسطها، ليدل على توسعة الله تعالى على العباد في الأرض التي يعيشون عليها، فلم يجعلها ضيقة، فيتزاحمون عليها، بل جعلها متسعة لمساكنهم، ولزروعهم، ولمراعيهم، ولكل ما يحتاجون، حتى أنهم يستعملون ويستخدمون منها أقل القليل منها، وهذا من فضل الله تعالى، فله الحمد على هذا البسط والسعة، مما يدل على كرمه ولطفه وسعة عطائه، وعظيم خلقه، وسعة رزقه سبحانه وتعالى.

ثم لفت الانتباه إلى مغزى وعلة وجود الجبال على الأرض ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: وضعنا في الأرض الجبال الشاهقة القوية، لتثبيت الأرض حتى لا تتحرك، فيختل سكونها الذي هو أصل لحياة العباد ومعاشهم، ولم يذكر سبحانه وتعالى الجبال باسمها، بل ذكرها بصفتها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ التي تبين العلاقة بينها وبين الأرض، وكذلك بينت وأظهرت الصفة التي توضح المقصد من وجودها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ فذكر سبحانه وتعالى صفتها التي هي الثبات الترسية. وفي هذا شد الانتباه إلى القوة التي لا يمكن أن تُضاف إلا للجبال بهذه القوة، فقد عُرِّفَت لكم برساوتها وقوتها، وشأنها في الأرض، ونسب عَزَّ وجل عملية خلقها ووضعها وعلتها له سبحانه وتعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما ألقى، وما دبر بها لكم وللأرض، وتعظيم وجلال الذي خلق ودبر وصنع جَلَّ جلاله.

ثم لفت سبحانه وتعالى أبصار وعقول عباده إلى نعمة ما يأكلون من الزروع، وما يصنعون منها، وما يدبرونه من المنافع العظيمة المتنوعة ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ فأنبت الله تعالى في الأرض من جميع أنواع النباتات المبهجة للنفوس. وقد أفادت دلالة ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾ الإخراج والإظهار، بأن عملية إخراج الزرع من الأرض هي من الله تعالى، وليست منكم، فإن الزارع يحرث، وينثر البذور، ولكن ليس هو الذي يخلق ويُنبت الزرع، فيُخرجه من الأرض. والإنبات يشمل عموم ما يخرج من الأرض من الزروع، لتستوعب الدلالة صغيرها من الحشائش، وعظيمها من الأشجار الباسقة، والممتد منها على الأرض، وغيرها من الأنواع، فضلاً عن تنوع عطائها من الخضروات والفواكه للإنسان، والحشائش للبهائم والحشرات والدواب بجميع أنواعها وأحجامها.

وأفادت دلالة جملة ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ التكثير في العدد، وفي التنوع والشمولية، كما أفادت دلالة ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٍ﴾ الأنواع والأصناف، ليشمل جميع ما يخرج من الأرض والتي منها الثمار حيث جميعها أصناف مختلفة في الطعم، والحجم، واللون، وكل صنف منها: زوج، ومجموعها أزواج، وهذه الأزواج متفرقة ومتنوعة إلى درجة كبيرة من الاختلاف والتباعد في الشكل واللون والمذاق والحجم، والانتفاع، والرائحة، فهي تبين عظيم التعدد من أوجه كثيرة، لا حصر لها، بل وتبين أنها أوجه متعددة حتى في النوع الواحد.

كما تفيد دلالة ﴿بَهِيجٖ﴾ الجمال والجميل الذي تبتهج به النفوس. فمن دقائق قدرته وحكمته جَلَّ جلاله أن جعل فيما تُخرجه الأرض من النبات والأشجار ما تبتهج به النفوس، فجمع خلقها بين تلبية الحاجات، وبين سرور النفوس بما ترى. وبالتالي أظهرت لكم مخلوقات الله تعالى الإنعام بالمقادير الكافية، والمستوفية لحاجتكم، مع جمالها، وسعادة النفوس بها. فإن مِن دقة ما خلق أنها تتفاعل معها النفوس. وفي هذا بيان لدقة التقدير فيما خلقه سبحانه وتعالى، ولبيان أن ما خلق الله عَزَّ وجل هو بتقدير يتناسب حتى مع حاجة عباده إليه، ليكون لهم منه كفايتهم الوافية الضافية. وليكون ذلك آيات لكمال قدرته عَزَّ وجل التي يتأكد بها القدرة على البعث بعد الموت.

كما يدل ويفيد ذلك أن حرث الإنسان في الأرض ما هو إلا بتقدير الله تعالى، فلن يستطيع أي مخلوق أن يزيد فيه بما لم يقدره الله تعالى، وكذلك لا يستطيع أحد أن يُنْقِص منه شيئاً مما قدره الله تعالى وقضى به. ليبين ويتبين من ذلك دقة الكون، ودقة إدارة وتقنين الكون من الله تعالى، سواء في إيجاده وتدبيره، أو في وحبسه ومنعه. أو في كثرته وقلته التي تتناسب مع سعة حاجة الإنسان، فكلما كانت حاجة الإنسان إليه لازمة، كان وجوده مستوفي لحاجته. كوجود الهواء الذي لا يستطيع أن يمنعه أحد عن أحد، وكذلك الماء والزروع. وأما المعادن، فإن وجود الحديد أضعاف معدن الذهب، لكثرة حاجة الإنسان للحديد أكثر من حاجته لمعدن الذهب. مما يُوجب على كل من تفكر أن يدرك عظمة ما خلق الله تعالى، وعظمة التدبير فيما خلق، فما عليه

إلا توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وعبوديته، وأنه لا يُسأل ولا يُعبد إلا الله تعالى. وأن كمال مظاهر خلقه دليل على كمال قدرته على بعث الخلق بعد الموت.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بأن هذا الخلق هو ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ليتبصر بها الجاهل، فإن آيات الله تعالى الكونية ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ تُنير وتكشف للعبد المنيب ما خفي عليه. وكذلك ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي: ويتذكر بها الناسي. فإنها تُذكره بما غاب عنه، بسبب النسيان. فكلما رأى آيات الله تعالى تذكره بعظمة الله عَزَّ وجل. فكانت له بمثابة المعلم الدائم، الذي يعلمه ويبصره بما جهل، ويذكره بما نسي. ثم يخبر جَلَّ جلاله بصفة العبد المستفيد من ذلك، فإنها ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ لكل عبد خاضع متذلل لربه، مقبل وراجع إليه بالطاعة ولانكسار والذلة والخوف والرجاء. لأن الإنابة تعني الرجوع، والعبد المنيب هو الذي يرجع لربه في كل شأن من شؤونه، فيتوب ويستغفر إذا أخطأ، ويعود إلى منهجه في الحلال والحرام. بما يفيد أن العبد غير المنيب هو المعرض عن آيات الله تعالى. وهذا مقياس لكل عبد في معرفته لحاله مع ربه، فكل ما كان أكثر إنابة، كان أكثر طاعة لربه عَزَّ وجل.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى بعض أفراد آيات الله تعالى في الكون، والتي منها إنزال الأمطار التي ترتوي بها الأرض والزروع والإنسان. فقال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ ألم تروا وتتفكروا وتنظروا إلى دلالة الماء الذي أنزله الله تعالى لكم بقدرته وحكمته من السماء؟ فربكم هو الذي ينزل المطر من السماء، وليس غيره. بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه هو الذي يجب ألا يُعبد غيره. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بتعيين مكان النزول بأنه من السماء ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكير والتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة ليهلك الخلق به. فَمَنْ هو الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وينزل المطر على هيئة قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهار؛ أو أشد جرياناً منها، حتى جاء تسميته على حقيقته بالماء ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ومن بديع البيان ودقته أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ فنحن وليس غيرنا له القدرة على إنزال المطر من السماء، وما يسبقه من تبخر مياه البحار والمحيطات، وتكثيفه في السماء، وسوقه بالرياح من مكان إلى مكان. ومن دلالة

قوله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ تُنبه الْمُخَاطَب إلى أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، ولينتفي بهذا الحصر للإنزال جميع المعتقدات الفاسدة في نزول المطر.

وقد سَمَّى الله تعالى هذا الماء بالمبارك ﴿ مَآءً مُّبَـٰرَكًا ﴾ ليفيد عظيم ما يترتب عليه من البركة في حياة الإنسان، والحيوان والنبات، والأرض، والدواب. وعظيم انتفاع الناس به في طعامهم وشرابهم، وفي كثير من حاجاتهم، فلا حياة لهم من غيره. كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه عَزَّ وجل جعل هذا الماء سبب لحياة كل شيء، فهو سبب لحياة الإنسان، والنبات، والحيوان، والحشرات، فكل ما ينمو ويتكاثر فإنه لا يمكن له أن يعيش إلا بوجود الماء الذي أنزله سبحانه وتعالى من السماء. أفلا تتفكرون في ذلك، وتستدلون به على ما يجب عليكم تجاه ربكم وخالقكم، ومدبر شؤونكم، وشؤون خلقه جميعاً، أفلا يتحقق لكم بذلك الإيمان الصحيح الصادق.

ثم يوضح تبارك وتعالى العلاقة بين الماء الذي أنزله من السماء وبين خروج النبات من الأرض، التي يقتات منها الإنسان والحيون والدواب، والحشرات، لتظهر العلاقة بين الماء وحاجتهم، وبين الماء وتغذيته لما يحتاجونه من النبات والحيوان. ليذكرهم جَل جلاله بما هم غافلون عنه، ويظهر به كمال قدرته، وعظيم إنعامه على العباد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ فبهذا الماء أنبتنا لكم به الحدائق والجنان. وقد أفادت دلالة ﴿ فَأَنۢبَتْنَا ﴾ أن ربكم تبارك وتعالى هو المصدر الأساسي لإنبات الأرض، وإخراج ما تحتاجونه من أنواع النباتات ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ ﴾ أي: البساتين والمزارع والحدائق. وقد وردت الجنات بصيغة الجمع ﴿ جَنَّـٰتٍ ﴾ بما يدل على الكثرة في النوع وفي الأشكال والأحجام، والطعم المتفاوت بدرجات دقيقة جداً، لا يحصيها الإنسان.

ثم عطف تبارك وتعالى على الجنات الحبوب من الثمار، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي: ما يحصده المزارعون من الحبوب بجميع أنواعها، كالشعير والذرة والحنطة والدخن والأرز وغيرها من الحبوب. فالحصيد هو: الزرع المحصود. فجميع هذا يدل على بديع صنع الله تعالى، وإكرامه لكم أيها الناس، مما يستوجب منكم طاعته وتوحيده، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم. فالحمد والشكر لله سبحانه وتعالى. وفي إفراد الحب الحصيد من بين أنواع الزروع للفت الانتباه إلى اختلاف تكوينه، وطريقة حصاده، وعظيم حاجة الإنسان إليه.

وفي هذا البيان دفع العقل والفكر للتأمل والتبصر الذي يقود إلى إدراك عظمة قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته، وأنه يحي العباد بعد موتهم كما أحيا وأنعش الأرض بالنبات بعد موتها. مما يبين سعة علم الله تعالى وحكمته وعظيم قدرته جَلَّ جلاله.

ثم يتدرج السياق التعليمي إلى لفت أنظار المكذبين بالبعث ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يتأملوا ويتفكروا في خلق أشجار النخيل العظيمة البهيجة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ ﴾ فعطف سبحانه وتعالى ذِكر النخيل على جنات، مما يدل على تخصيصها بالذكر من بين جميع أشجار الجنان والزروع، بالرغم من دخولها في محتويات وأصناف زروع الجنات ونباتاتها، للدلالة على فضلها. وانظروا وتأملوا في أشجار النخيل ﴿ وَٱلنَّخۡلَ ﴾ التي تميزت بالارتفاع، فخلقها لكم ربكم سبحانه وتعالى ﴿ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ أي: طويلات، ذات الارتفاع والامتداد والعلو تجاه السماء، فهو ارتفاع مُلفِت للنظر والفكر، بما هي عليه من القوة والشدة، ومواجهة الرياح، فلا تعطفها الرياح وتكسرها، مما يدل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى. فمن تأمل في نوع خلقها وتكوينها المختلف عن غيرها من الأشجار فإنه يرى عظيم قدرة الله الباهرة المتنوعة، بما يؤكد للإنسان أن الله تعالى على كل شيء قدير، ومن ذلك بعث الإنسان بعد موته. والإيمان بالغيب الذي يخبركم الله تعالى به عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يزداد شد الانتباه ولفت الأنظار لحصولها من التمور، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ ﴾ لها في طلعها آية، والطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخيل، فقد جعل الله سبحانه وتعالى طلعها ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ وهو المتراكب، المنضود بعضه فوق بعض داخل أكمامه، قبل أن تَفَتَّح تلك الأكمام التي حوت ذلك النضيد، حتى إذا خرج عن أكمامه لم يعد نضيداً، بل حبات متفرقات، كل حبة قائمة بنفسها. فمن تأمل ذلك شاهد بديع خلق الله تعالى الباهر للعقول والأفئدة والفكر، الذي يجعل الأوابين من العباد يُذعنون لربهم، ويسلمون ويستسلمون لما يرون من كمال وعجائب قدرته في مخلوقاته. مما يؤكد أهمية التأمل والتفكر في آيات الله تعالى الكونية، والتأمل في العلاقة المترابطة بين تلك الآيات الكونية، وآيات الله تعالى الْمَتْلُوة في كتابه العزيز. وأنها محطات للتزود بالعلم النافع، الذي يربي الأوابين على فهم وإدراك الحق، والعمل والانقياد لربهم بالطاعة والامتثال. وهذا يُوجب ويعزز أهمية العناية بلفت نظر المتعلم والمدعو والمنصوح إلى آيات الله تعالى المبثوثة في الكون كله، مع عظيم تنوعها، الذي يحقق الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة.

ثم بعد أن بين جَلَّ جلاله عظيم مخلوقاته، وعظيم تدبيره، وكشف العلاقة بين حاجات الإنسان وما خلق له، يتجه البيان بالْمُخَاطَبين إلى الغاية من ذلك. فيقول تبارك وتعالى ﴿ رِّزۡقًا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً

مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ إن تلك المعطيات من الخلق والإنبات والماء، وغير ذلك مما خلق ربكم لكم هو ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ ﴾ معاشاً لكم أيها الناس. فأنبتنا هذا الإنبات من الرزق لكم أنتم أيها العباد. فهو تكريم وفيض رحمة وعناية من الله تعالى لكم أيها العباد، الذي يستوجب منكم شكر هذا التكريم والتسخير بالطاعة والامتثال شكراً وحمداً لربكم سبحانه وتعالى، الذي أغدق عليكم بما أنعم من الأرزاق التي لا تُعد ولا تُحصى.

ثم يلفت عَزَّ وجل الانتباه إلى العلاقة في القدرة بين إحياء الأرض الميتة، وبين إحياء الناس بعد الموت، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ ﴾ وأحيينا بهذا الماء الأرض الميتة من البلاد. فإن من مظاهر وظواهر البراهين والحجج الموضحة لكمال قدرته في إحياء الناس بعد موتهم هو إحياء الأرض بعد موتها، بما يخرج وينبت فيها من مظاهر الحياة من الماء والنبات.

فقد ذكر تبارك وتعالى إحياء لأرض بعد موتها بهذا الماء المبارك، فقال تعالى ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ ﴾ وقال عَزَّ وجل فيما سبق ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴾ فقد ترتب على نعمة إنزال المطر نعمة أخرى، وهي إحياء الأرض بعد موتها بما أخرج وأنبت فيها من الأشجار والأعشاب والحشائش، وما ينتج عن ذلك من الثمار. فحياة الأرض باخضرارها وارتوائها، مع وفرة المياه في جوفها وأوديتها. وقد تضمن البيان العظيم لفت الانتباه إلى الإحياء بعد الجدب ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ ﴾ تذكيراً وتدقيقاً للفهم والاعتبار، بإحياء الإنسان بعد موته، كما هو إحياء الأرض بعد موتها. فقال تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ بمثل ذلك تُخرجون من قبوركم، كما أخرج ربكم الزروع من الأرض بعد موتها. فبمثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها يكون إحياء العباد بعد موتهم للحساب والجزاء، والانتقال للحياة الآخرة. بما يفيد أين الصعوبة والامتناع في ذلك؟ وقد شاهدتم عظيم قدرة ربكم فيما بينه لكم. مما يعلم الإنسان منهج القياس، بأن يقيس الغيب على مظاهر وظواهر الكون الباهرة العظيمة، التي تدل على أن الله تعالى على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، وألا تُقاس قدرة الخالق على المخلوق، وأنه يجب على الإنسان أن يرتقي بعقله كما رَقَّاه الله تعالى بالبيان والحجج والبراهين. مما يبين ويفيد أن منهج الله تعالى في دينه قائم على الإقناع بالتعليم والإرشاد، مع قدرته على إجبار العباد على ما يريد. ولكن كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾ فكل نفس بما كسبت رهينة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

وبعد أن أظهر الله تعالى الأدلة والحجج من آياته الكونية على كمال قدرته على البعث والنشور، ينتقل بالْمُخَاطَبين إلى ما يعرفون من حال الأمم السابقة التي كذبت بالمرسلين، ثم ما حاق بهم العذاب الشديد. لينذرهم، بأن يقيسوا حالهم إن كفروا على حال من سبقهم من الأمم الكافرة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ فقد كذبت يا أيها الرسول قبل قومك ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ قوم نبي الله تعالى نوح عليه الصلاة والسلام، وكذلك ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ وقد اختلف أهل التفسير في تعيين أصحاب الرس. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: هم قوم شعيب، وقيل: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى. وهم من قوم عيسى[1] والتي وردت قصتهم في سورة: يس، حيث قال تعالى ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقال الطبري رحمه الله تعالى: هم قوم كانوا على بئر. وذلك أن الرس في كلام العرب: كل محفور؛ مثل البئر والقبر، ونحو ذلك[2] وقيل غير ذك عنهم، والعبرة بما حصل لهم. وكذلك كذبت قبلهم قوم ﴿ وَثَمُودُ ﴾ وهم قوم نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام. الذين عقروا الناقة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ وكذلك كذب قوم عاد نبي الله تعالى هود عليه الصلاة والسلام. ومثلهم فرعون وقومه، الذين كذبوا رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام. وكذلك

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٧٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٤٥٣)

قوم نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام. وذكرهم الله تعالى بصفة الأخوة باعتبار أنهم كانوا أصهاره. كما ذكر ذلك الشوكاني وغيره من أهل التفسير: جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره(١)

وكذلك ممن كذبوا المرسلين ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فقد كذب أيضاً ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ ﴾ رسولهم شعيب عليه الصلاة والسلام. أي: أن أصحاب مَدْيَن كذبوا رسول الله شعيب عليه الصلاة والسلام، قال ابن كثير رحمه الله تعالى ما ملخصه: هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب، لأنهم نُسِبُوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وإنما قال ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نُسِبُوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. فمن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أصحاب مدين. والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصِفُوا في كل مقام بشيء، ولهذا وَعَظَ هؤلاء، وأَمَرَهُم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة(٢) وهذا تحرير دقيق لقوم شعيب عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ممن كذبت رسلهم ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ أي: تُبَّع الحميري. قال الجوهري رحمه الله تعالى: والتتابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع. وقال القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن أورد الأقوال في ذلك: والظاهر من الآيات أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشد من معرفة غيره. ثم ذكر رحمه الله تعالى: أن تُبَّع كان واحداً بعينه، وهو والله أعلم: أبو كرب، الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لَمَّا أُخبر أنها مُهاجر نبي، اسمه: أحمد(٣) ولذلك روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها نهت عن سبه، كما ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً، فإنه كان رجلاً صالحاً. وقال كعب: ذم اللهُ قومه، ولم يذمه(٤) مما يدل على أن المقصود به قومه.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فجميع أولئك المذكورين كذبوا برسلهم، فحاق بهم العذاب الذي وعد الله تعالى به من كذب المرسلين. ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي: فحق ووجب عليهم وعدنا بالعذاب

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٧٣/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٣-٣٥٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩/٢١)

لمن كذب المرسلين. بما يفيد فاحذروا أيها الناس من تكذيبكم لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يصيبكم ما وعدنا به المكذبين من العذاب.

ثم يلفت تبارك وتعالى عقول وأفهام المنكرين للبعث بعظيم ما خلق ابتداء من الخلق، وقد أورده تبارك وتعالى بأسلوب الاستفهام، فقال تعالى ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يقرر تبارك وتعالى شأن البعث وحقيقته، وأنه كائن لا محالة، فيقرره بأسلوب الاستفهام والسؤال الذي يفيد التقريع والتوبيخ لمن أنكره. ألم يكن مِن قدرتنا العظيمة خلق الكون كله ابتداء من غير سابق مثال، ولا وجود؟ ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ فهل أعجزنا خلق الخلق ابتداء، حين لم يكن الخلق شيئاً؟ ليكون الجواب. لم يكن هناك عجز، بل أبدعه الخالق عَزَّ وجل من غير مثال سابق له. فإذاً كيف يعجز الله تبارك وتعالى عن البعث والإعادة بعد الموت؟ فمن كانت له هذه القدرة العظيمة، فإنه قادر على إعادة الخلق بعد الموت. فإذاً كيف لا تكون له كمال القدرة على إعادة ما سبق من الخلق؟ فهو سؤال يعيد الأذهان إلى الحقيقة بالشواهد التي يجب على العاقل أن يدركها، وأن يقيس عليها كمال قدرة الله تعالى. فلا شيء يُعجزه عَزَّ وجل ويمتنع على الخالق جَلَّ شأنه. وهو أسلوب يثير عند المتلقي والْمُخَاطَب القياس الصحيح، والاستدلال بالظاهر على أخبار الغيب.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تقرير كفرهم بأنه كفر عناد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إنهم في حيرة وشك وارتباك. وأورد سبحانه وتعالى مطلع البيان بحرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي أفاد الإضراب عن أنهم منكرين، بل هم معترفون بعظمة قدرة الله تعالى في خلقه الكون الذي هو الخلق ابتداء، الذي هو الخلق الأول. فيدركون أننا ما عيينا ولا عجزنا عن الخلق الأول، بل هم يقرون بذلك. فإنهم يعلمون عظمة خلق الأشياء ابتداء، وأنه أعظم من إعادة بعث الأموات، ولكن حقيقتهم أنهم ﴿ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ولكن الخلط واللبس والشك تمكن منهم، فأغشى مداركهم عن دلائل عظيم قدرته سبحانه وتعالى. فإن التباسهم ولَبْسَهُم محصور في الإعادة للخلق بعد الموت ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ من إعادة الخلق من جديد، الذي هو البعث. مما يفيد أنهم لم يستفيدوا من إدراك الحق بالقياس، فلو قاسوا قدرة الله تعالى في البعث على قدرته عَزَّ وجل في ابتداء الخلق لما أنكروا البعث. ولكنهم فصلوا بين الأمرين، فحصل عندهم الريبة والشك. مما يبين أن الفصل بين حقائق المعرفة يؤدي إلى الضلال.

وهذا البيان يتعاضد مع حالتهم النفسية في قوله تبارك وتعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ في شأن مضطرب، وملتبس، ومختلط. لأنهم أمام كلام رب العالمين المعجز، الذي أبهرهم،

وفي نفس الوقت يخالج نفوسهم الحسد والأنفة. وهذا هو حال كل من يعرف الحق، ويكابر عليه، سواء كان في الدين أو في غير ذلك من التعاملات البشرية.

وبعد أن أوضح تبارك وتعالى دلائل قدرته على البعث بعد الموت، وما هم عليه المشككون من اللبس، والعناد المخالف للأدلة، ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم قدرته جَلَّ جلاله في خلق ذات الإنسان، جواباً لمن في نفسه لبس وشك وريبة. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ انتقل الخطاب الكريم إلى بيان حقيقة خلق الإنسان، وعظيم علمه سبحانه بهذا المخلوق إلى أدق ما يكون منه، حتى من الوسوسة والخواطر التي تدور في ذهنه. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ إن ربكم هو الذي خلق جنس هذا الإنسان ابتداء من العدم. فجعل أصله من طين. إذ خلق آدم عليه السلام من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين، وهو ما يخرج من الزوجين.

وابتدأت الآية الكريمة بحرف الواو الملتصق بحرف التحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ المسبوق بلام القسم. الذي أفاد القسم. كما أفاد حرف التحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ تأكيد ما بعده تأكيداً متحققاً؛ من خلق جنس هذا الإنسان ابتداء. وهو أبلغ من تجريد الفعل من هذا الحرف البياني البديع كالقول: (خلقنا الإنسان) من غير ذكر هذا الحرف﴿ وَلَقَدْ ﴾ فقد أكد هذا الحرف تحقق الخلق من ربكم تبارك وتعالى بعد أن كان عدماً. فيقرر سبحانه وتعالى الإنشاء له ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ أي: أنشأنا هذا الإنسان بِصُنْعِنَا له ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ وكذلك من دقيق علمنا هو معرفتنا بما يختلج في نفسه من أفكار، وإرادات لم ينطق بها، ولم تظهر في واقع تصرفاته، بل ربكم أقرب قدرة وعلماً وتدبيراً له من ألصق أجزاء جسمه به، وهو حبل الوريد، فقال تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ وهو الحبل الممتد من ناحية الحلق إلى العاتق. وهما حبلان. أي: وريدان عن يمين وشمال. فبالرغم من قرب هذا الحبل من الإنسان إذ هو جزء منه، وأن حياته مرتبطة به، فإن قدرة ربكم أقرب إليه من هذا الوريد. وهو بيان لعظيم قدرة الله تعالى، وتمكنه من كل أحد بعينه عَزَّ في علاه، مع سرعة نفاذ أمره في عباده جميعاً، بما يؤكد أن إعادة بعثه ليست بعزيزة ولا بعيدة ولا مستحيلة على مَن هذه قدرته وعظمته جَلَّ جلاله. فَيُظهِر بذلك عظيم تدبيره سبحانه وتعالى في الخلق والإنشاء، بما يفيد انفراد الله تعالى بالخلق، وعظيم القدرة، التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه عَزَّ في علاه. وأن الله تعالى يخلق ما يشاء، وكيف يشاء. وبالتالي فإن الإنسان مربوب لربه تبارك وتعالى. فيجب عليه الاعتبار، والقيام بلوازم الربوبية؛ من كمال الإيمان، وكمال الطاعة الخالصة لربه جَلَّ جلاله. وفي هذا امتنان عظيم من رب العالمين بأن

أوجد هذا الإنسان من عدم. مما يستوجب عليهم شكر ربهم وتعظيمه جَلَّ جلاله، وتحقيق أوصاف المؤمنين التي بيَّنَها لهم عَزَّ وجل. وهذا المنهج في البيان والتعليم يبين أن دين الله تعالى قائم على الأدلة والبراهين. كما أن من رحمة الله تعالى بعباده أنه يعلمهم بكل وجه وأسلوب، وينقلهم من معرفة إلى معرفة بتدرج عظيم بليغ، من أجل رحمتهم بهذا الدين العظيم. مما يعلم المؤمن كيف يكون صبره ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى، وفي التعليم والنصح والتوجيه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه مع علمه بهذا الإنسان حتى بما توسوس به نفسه، وأن قدرته عَزَّ وجل أقرب إليه من حبل الوريد، فإن من تدبيره الحكيم والعظيم أيضاً أن أوكل به ملكين، يكتبان ويحفظان عليه ما يكون منه، قولاً وعملاً. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ فنحن أقرب إليه من حبل الوريد، ومع ذلك أوكلنا ملكين أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات، والآخر عن الشمال يكتب ما يصدر عنه من السيئات. إذ يتلقيان ما يصدر عن هذا الإنسان، فيحفظون ما له وما عليه. بل من شدة المبالغة في رصد ما يكون من الإنسان أنهما ﴿ قَعِيدٌ ﴾ أي بمعنى: المترصد، والرصيد، الذي لا يفوته شيء. فهما ملازمان لا ينفكان ولا يبرحان عنه. مما يدل أن وراء هذا الحفظ حساب، ولو لم يكن هناك حساب فلا مكان لهذا التلقي الدقيق. مما يؤكد لكم أنه هناك بعث بعد الموت، وحساب وجزاء، كما أخبركم ربكم جَلَّ جلاله بذلك.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن مهمة الملكين الكريمين، فقال تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ما إن يتكلم كل إنسان بلفظة من الكلام إلا وعنده مَلَك يرقبها فيكتبها كما هي. وقد أفادت دلالة ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ ما ينطق من كلام، فيخرج من فيهه. مما يفيد أن من كتم ما أراد أن يقوله فلم يقله، لا يكتبه الملك، فلا له ولا عليه. إذ قيد الله تعالى البيان باللفظ، وهذا من رحمة الله تعالى عن تجاوزه مما يكون من الخواطر، ما لم ينطق بها. كما أفادت دلالة ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ الحصر لجميع الألفاظ، فلا يفوت منها شيء أبداً. كما جمعت دلالة ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ كل كلمة خرجت منطوقة. بما يفيد كمال المبالغة في الرصد. لتدل على بلوغ الغاية في الحصر الذي لا يفوت منه شيء أبداً. وأن هذا المَلَك مُتَّصِف بأنه ﴿ رَقِيبٌ ﴾ قوي المراقبة والمتابعة. فيحفظ ما يصدر عن هذا الإنسان، فهو مشاهد وشاهد عليه. فلا تخرج لفظة إلا كتبها. وكذلك من صفات هذا الْمَلَك أنه ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر مستعد ومتهيء، ومتابع للإنسان أينما كان. فلا يستطيع الإنسان أن يفوت منه أبداً. مما يبين عظيم عدل الله تعالى لهذا الإنسان، فلا يكتب عليه إلا ما كان منه، من غير زيادة ولا نقص.

ثم ينتقل البيان من الله العزيز الحكيم إلى نهاية حياة هذا الإنسان في الدنيا، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ يخبر الله تعالى بأن سكرت الموت سَتُظهر وتبين للإنسان ما كان يمتري ويجادل فيه، وينكره ويكذبه ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ فهذا الحق الذي كنت تفر منه، فلا مناص ولا فكاك ولا خلاص لك منه. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهي غمرته وشدته التي تَغشى الإنسان، وتَغْلِب على عقله، وتَدُلُّه على أنه ميت. وعن دلالة ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أن فيها وجهان: أحدهما: جاءت بحقيقة الموت. والثاني: بالحق من أمر الآخرة، فأبانت للإنسان ما لم يكن بيناً له من أمر الآخرة[١] وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن هناك وجهان في تفسير قوله تعالى ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أحدهما: وجاءت سكرت الموت، وهي شدته، وغلبتُه على فهم الإنسان، كالسكرة من النوم والشراب بالحق من أمر الآخرة، فَتَبَيَّنَهُ الإنسانُ، حتى تَثَبَّتَه وعَرَفَهُ. والثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت[٢] فهي الحالة التي يكون عليها من حضرته الوفاة، وما يجده من شدة وغمرته التي تغشى من حضرته الوفاة. فيتضح له الحق، ويظهر له صدق ما أخبر به الرُّسُل عن ربهم تبارك وتعالى.

ثم يشير سبحانه وتعالى إلى الموت باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الموت الذي كنت تفر منه ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ ذلك الموت الذي كنت تحيد عنه بالميل والفرار عنه. بما يعني كراهية الإنسان للموت، وحبه للحياة، فخاطبه الله تعالى بما يكشف ويبين حقيقة مشاعر هذا الإنسان من الموت. ومحاولة تجنب أسباب حصوله.

ثم ينتقل البيان بالْمخَاطَبين إلى ما بعد الموت من أمور يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ ونفخ في الصور النفخة الثانية ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ ذلك الوقت هو اليوم الذي تَوَعَّدَ اللهُ تعالى به الكافرين الجاحدين له. والصور: هو قرن عظيم، ينفخ فيه الملك إسرافيل عليه السلام. فالنفخة الأولى يصعق ويموت جميع من في السماوات والأرض إلا من استثناهم الله تعالى، كما جاء في سورة الزمر، قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ممن ثبته الله تعالى عند النفخة، فلم يصعق، فبقي على ما هو عليه

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٩٣-١٩٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٢٧)

من الحياة. قيل أنهم: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت[١] ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ كما ورد ذلك أيضاً في سورة الزمر. وهي النفخة الثانية، نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فيقومون من قبورهم لحسابهم، وهم في كامل صورتهم التي كانوا عليه في الدنيا، حيث يُعيد الله تعالى أجسامهم، وأرواحهم، فإذا بهم يشاهدون مشهد يوم القيامة، يوم البعث والنشور والحساب، ليأخذ كل واحد من العباد جزاءه.

بما يفيد أن هذه الحال التي سيكون عليها العباد، والتي تدل على عظمة ربكم أيها العباد، ومع هذا تُنكرون البعث، وتشركون معه المخلوق الضعيف العاجز. فأين عقولكم؟ فإنها موعظة جليلة من الله سبحانه وتعالى، يصحح بها أفهام العباد الضالين عن الحق الظاهر البائن. مما يبين أن حجة الله تعالى قد ظهرت للجميع، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

ثم يخبر الله تعالى عن مشهد الحضور يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ وفي ذلك اليوم بعد أن يُنفخ في الصور، فيبعث الله تعالى العباد من القبور تأتي كل نفس من النفوس ومعها من يسوقها، ومن يشهد لها بما عملت من الخير، أو من الشر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: السائق من الملائكة، والشهيد شاهد عليه من نفسه، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: عن قوله تعالى ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ الملكان، كاتب وشهيد. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: السائق من الملائكة، والشاهد من أنفسهم، الأيدي والأرجل، والملائكة أيضاً شهداء عليهم[٢] فجمعت دلالة الشاهد الملائكة، وجوارح الإنسان كما قال تعالى في سورة النور ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ فالشهود الذين معه هي جوارحه، إذ تشهد عليه بما كان منها، وكذلك الملائكة شهود عليهم.

وحينها يُقال للمعرض المكذب توبيخاً وتعنيفا وإهانة ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ لقد كنت أيها الكافر المعرض عن دين ربك سبحانه وتعالى ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ كنت في حياتك الدنيا غافل ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الذي أنت فيه اليوم ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عن هذا الذي تعايشه وتكابده اليوم، وتُعاين عواقبه، بما يفيد شغلتك شهواتك وجحودك، فأوقعتك في الغفلة التي تعاين فيها مصيرك من العذاب. مما يفيد التحذير للأحياء من هذا اليوم، وبما يفيد الموعظة لكم، بلزوم طاعة ربكم تبارك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٥٤)

(٢) المرجع السابق (٢١/٤٣٠-٤٣١)

وتعالى. ولا تنشغلوا بالدنيا، في غفلة عن هذا اليوم. فإن حالك اليوم هو حالة معاينة الحقائق ومعايشتها ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ فقد أصبحت أيها الكافر المنكر في يقين بالذي كنت تنكره، فقد رفعنا عنك الحجاب الذي كان بينك وبين مُشاهدة مَشاهد الآخرة، فها أنت اليوم تعاينها وتعيشها ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ فشأن بصرك اليوم قوي في المشاهدة. فهو تأكيد لحدة البصر، وقوة المعاينة. فبصرك اليوم نافذ، إذ تبصر به ما كنت تنكره وتجحده في الدنيا. وكذلك يشمل دلالة أن بصرك اليوم شاخص، تريد أن تعرف أين تكون.

وفي هذا البيان من الله تعالى عن أمور الآخرة ما يفيد البلاغ والإنذار والتحذير، والوعظ بما هو قادم عليه الإنسان، فعليه بطاعة ربه عَزَّ وجل، والامتثال لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمته وعدله جَلَّ جلاله. ومن دقة البيان أن أورد سبحانه وتعالى كشف الغطاء بصيغة الماضي ﴿ فَكَشَفْنَا ﴾ لإفادة التأكيد على حصوله، وكذلك ليعيش المخاطب واقع الحال، وكأنه في ذلك اليوم. وقبله أورد سبحانه وتعالى المخاطبة للكافر بصيغة الحاضر ليوم القيامة، والماضي من حياته في الدنيا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ ﴾ لقد كنت في غفلة في حاتك الدنيا. ليعيش المخاطب المشهد وكأنه قد حل به، ويكابده، وذلك أعظم أثراً، وأكثر بلاغة، بنقل المخاطبين إلى لمشهد وكأنهم يعيشونه، لما لذلك من أثر على نفسية الجاحدين، من الترهيب والوعظ والتأمل. وهذا من الإعجاز البياني والبلاغي في إثارة النفس نحو الحقائق الغيبية، وكأن الإنسان يعيشها فعلاً.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن كشف الله تعالى ما يكون من حال الكفرة يوم القيامة، يستمر البيان الكريم في الكشف عن حال هذا الكافر مع قرينه من الملائكة التي تكتب أعمال العباد. فقال تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ فيقول الملك الموكل به: هذا الذي عندي من كتاب أعمالك. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى

مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل. فيقول ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي: معتد مُحَضَّر، بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد هذا كلام الملك السائق، يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته[١] وفي هذا البيان من الله تعالى عن أمور الآخرة ما يفيد البلاغ والإنذار والتحذير، والوعظ بما هو قادم عليه الإنسان، فعليه بطاعة ربه عَزَّ وجل، والامتثال لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمته وعدله جَلَّ جلاله. ومن دقة البيان أن أورد سبحانه وتعالى قول القرين بصيغة الماضي ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ لإفادة التأكيد على حصوله، وكذلك ليعيش المخاطب واقع الحال وكأنه في ذلك اليوم.

ثم يخاطب الله تعالى المكلفين من الملائكة، وهم السائق والشهيد ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ألقيا أيها السائق والشهيد ﴿ فِى جَهَنَّمَ ﴾ جميع من كان في الدنيا ﴿ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ كثير الكفر والتكذيب، ومعاند للحق. ووصف سبحانه وتعالى كفرهم بصيغة المبالغة ﴿ كَفَّارٍ ﴾ لإفادة قوة ما كان منهم من العناد في الكفر، بالرغم مما جاء عن الله تعالى من البينات والبراهين. فكانوا مستمرين في كفرهم وجحودهم وعنادهم. كما أكد ذلك بقوله تعالى ﴿ عَنِيدٍ ﴾ بما يفيد أنه عرف الحق، ولكنه كان معانداً، ويتمنع من باب الاستكبار والعناد.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى حال هذا الكافر عندما كان في الدنيا، بأنه ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ فقد تمثل بثلاث صفات ذميمة: الأولى: أنه ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ لا يؤدي ما عليه من الحقوق. فيمنع ما لله تعالى عليه. فلا يبذل خيراً، ويمنع عن غيره الخير، ومن ذلك صدهم لغيرهم عن سبيل الله تعالى، فهو ممتنع عن الطاعة، ويمنع ويصد الناس عن سبيل الله تعالى، بما يذيعه وينشره من القول والكذب والبهتان، وإثارة الشهوات، وكذلك يشمل مع الأقوال الأفعال المشينة التي تمنع وصول الخير إلى غيره. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾: أنه مَنَّاع للإسلام، يمنع الناس من الدخول فيه. قاله الضحاك، ومقاتل[٢] والصفة الثانية ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ معتدي على حق الله تعالى عليه، فلا يقر بتوحيد الله تعالى وطاعته عَزَّ في علاه. قال الطبري رحمه الله تعالى: معتدي على الناس بلسانه، بالبذاءة والفحش في المنطق، وبيده

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤١/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٧/٧)

بالسطوة، والبطش ظلماً[١] والصفة الثالثة: أنه شخص ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ مشكك في الحق. فقد جمع أقبح الصفات التي تُوجب له جهنم وبئس المصير.

ثم يتدرج البيان العظيم في وصف أصحاب النار إلى إظهار أعظم الذنوب، فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ الذي جعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً، فجعله معبوداً من دون الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ فعبد مع ربه سبحانه وتعالى غيره، فإن جزاء هذا الكافر هو طرحه في العذاب المؤلم ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ في العذاب الذي اتصف بشدته. أي: في أشد عذاب جهنم. وقد تكرر الأمر بإلقائه في العذاب، ففي الأولى: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ والثانية قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ وذلك لإفادة التأكيد، وإظهار التعنيف والتشديد عليه، جزاء وفاقاً على الذي كان منه من الكفر.

ثم يقول الملك القرين موبخاً له ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ والقرين هو المقترن به، لكتابة أعماله وإحصائها عليه كما كانت منه. فينفي أن زاد عليه شيئاً ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ ما زدت عليه ﴿ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي: ولكنه كان بعيداً عن الهدى، فأعماله من فئة الكفر والشرك، فهو موغل في الضلال الذي هو الكفر.

ومن بديع السياق وقوة سعته أنه يشمل على دلالة أن القرين هو الشيطان كذلك. فينفي إغواء هذا الإنسان، وأنه كان قد أوغل في الباطل باختياره، أي: فأوغل في الكفر. وقد ورد التأويلين والتفسيرين عن أهل العلم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فيه قولان: أحدهما: شيطانه. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والجمهور.

وفي الكلام اختصار، تقديره أن الإنسان ادَّعَى على قرينه الشيطان، أنه أضله. فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ لم يكن لي قوة على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله. والثاني: أنه الملك الذي يكتب السيئات، ثم يَدَّعي الكافر على الملك أنه زاد عليه فيما كتب. قاله سعيد ن جبير[٢] وكلا الأمرين له وجه، فلا تعارض بينهما. فيحصل هذا وهذا. مما يدل على بلاغة السياق في احتواء المشهدين بسياق واحد.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٣٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٩٧)

ثم يقول تبارك وتعالى للمتخاصمين ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ لا تختصموا الآن عندي، وقد سبق أن أنذرتكم بإرسال المرسلين، وإنزال الكتب. وأخبروكم بما توعدت به من كفر. فلا مجال للاختصام اليوم. فقد قامت عليكم الحجج والبراهين، وبالتالي لا حجة لكم مقبولة، وقد كان منكم الكفر وعدم الطاعة والامتثال. مما يبين عدل الله تعالى في القضاء الذي يبين علمه الشامل بكل ما كان من خلقه. وفي هذا البيان من الله تعالى عن أمور الآخرة ما يفيد البلاغ والإنذار والتحذير، والوعظ بما هو قادم عليه الإنسان وكأنه يعيشه ويراه بعينه، فعليكم أيها العباد بطاعة ربكم عَزَّ وجل، والامتثال لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمته وعدله جَلَّ جلاله.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم علمه ودقته، وقوة تدبيره وعدله الذي انتفى منه الظلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ قد قضيت بالعدل، وبالتالي ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ لا يتغير الحكم مهما كان الادعاء. ثم ينفي سبحانه وتعالى أن يكون منه الظلم لأحد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فلست بظالم للعبيد أبداً، فلا أزيد على إساءة المسيء، ولا أُنقص من إحسان المحسنين. فنفى جَلَّ جلاله أن يكون منه الظلم لأي أحد من عباده. بما يفيد حُكم الله تعالى العادل، إذ يُوَفِّي كل أحد حقه المستحق بالعدل الذي لا ظلم فيه البتة. فنحمد الله تعالى على عظيم عدله، وكريم بيانه التحذيري، الذي كشف الشأن الذي سيكون عليه الناس يوم القيامة. فلا يلوم الإنسان إلا نفسه.

ثم يخبر سبحانه عن مقدار استيعاب جهنم لجميع المستحقين لها. فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ففي ذلك اليوم يُوجِّهُ اللهُ تعالى هذا السؤال، وهو أعلم من غير أن يسأل سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟[1] هل امتلأتِ من الجِنَّةِ والناس أو بقي متسع؟ سؤال لتعظيم قدرة الله تعالى، وعظيم جهنم التي تستوعب جميع المستحقين لها. لترهيب الأحياء، ووعظهم، من خلال بيان حقائق جهنم. فيأتي الجواب مباشرة من جهنم ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ هل بقي شيء وقد امتلأت؟ أي: ما من مزيد لشدة امتلائها. فعن مجاهد رحمه الله تعالى: وعدها الله ليملأنها. فقال عَزَّ وجل: هل أوفيتك؟ قالت: وهل من

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٤٢)

مسلك؟[١] أي: ليس هناك مزيد. فاستوعبت جميع من يستحقونها من العباد. ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وأن يجيرنا والمسلمين أجمعين من النار.

وبعد أن عرض وكشف تبارك وتعالى للناس عن حال الكافرين يوم القيامة، ينتقل البيان العظيم عن كشف ما يكون للمتقين في ذلك اليوم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وقُرِّبَت وأُدنِيت الجنة من المتقين، فينظرونها ليدخلوا إليها، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: قُرِّبَ دخولهم إياها، ونظرهم إليها[٢] وفي هذا التقريب ما يدل على الحفاوة بالمتقين الذين يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته، فيبتعدون عن المعصية، ويسارعون للطاعة والامتثال، وإذا اعترفوا ذنباً سارعوا للتوبة والمغفرة. فإن الله تعالى رحيم وكريم، وأن الله تعالى يُكرم من أطاعه. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أن هذا الوعد والموعد للمتقين ليس ببعيد، لأنه واقع لا محالة. ففيه تشويق وتقريب للمتقين بأن ما وعدناكم به قريب الحصول عليه، كما قُرِّبَ دخولهم إياها، ونظرهم إليها، وأن الجنة تُدنَى منكم وتُقَرَّب لكم. إكراماً وعناية لكم، لما كان منكم من طاعتكم لربكم بالتقوى. التي هي: البعد عن معصيته مخافة عذابه، والعمل بطاعته رجاء رحمته.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن صفات أهل الجنة عندما كانوا في الحياة الدنيا، فيقو جَلَّ جلاله ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ هذه الجنة للمتقين التي وعدناهم بها. فهي لكل من اتصف بصفتين عظيمتين: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ الصفة الأولى: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي: تواب، ورَجَّاع إلى ربه، كلما حصل منه التقصير والذنب أسرع في العودة إلى الله تعالى بطلب التوبة والمغفرة، والهروب مما كان منه. والصفة الثانية ﴿ حَفِيظٍ ﴾ يحفظ عهود الله تعالى فلا ينقضها، فهو الحافظ لوصية الله تعالى، المحافظ على دين الله عَزَّ وجل، وهو الحافظ لما استودعه الله تعالى من الإنعام، بالشكر والمتابعة في الطاعة والامتثال.

وكذلك من صفات المتقين الذين لهم الجنة هو ما ورد في قوله تعالى ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ فهاتان صفتان إضافيتان للصفتين الأولى والثانية: فالثالثة هي: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وهو الذي امتلأ قلبه بالتقوى، فلا يراقب إلا ربه تبارك وتعالى، حتى وإن لم يشاهده أحد من الخلق، فهو يراقب الله جَلَّ جلاله وليس العباد. فإن من خوف المتقين وإجلالهم لربهم تبارك وتعالى فإنهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٤٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/١٠٦)

خاضعون، خائفون، متذللون لربهم عَزَّ وجل. ليدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى. فالمتقين هم أصحاب القلوب الممتلئة بالخوف من الرحمن أينما حلوا وكانوا، وفي أي شيء كانوا، فهم يهابون ويخافون ربهم عَزَّ وجل أينما كانوا وحيثما حلوا وارتحلوا، وإن لم يراهم أحد من الخلق، ومع خوفهم يرجون رحمة ربهم تبارك وتعالى.

والصفة الرابعة: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي: وجاء وهو متصف قلبه بالإنابة التي هي الرجوع إلى الله تعالى، ملتزم بالإخلاص لربه جَلَّ شأنه. مما يدل على أن قلبه متعلق بطاعة ربه، فيأتيها وهو محب لها، ومُبتعد عن المعاصي وهو كاره لها. مما يبين أن من أراد أن يكون من المتقين فعليه بلزوم هذه الصفات الأربع، والمداومة عليها.

فيقال للمتقين عند ورودهم الجنة ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ ادخلوا الجنة في أمن وسلام، فإن هذا اليوم هو يوم خلودكم في الجنة، فلا تخرجون منها أبداً. وقد تضمن البيان الكريم أمرين: الأول ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أي: ادخلوها سالمين من الآفات، وآمنين من النار، ومن كل خوف وفزع، فأنتم في سلام وأمن. وقد أفادت الباء في مطلع كلمة سلام ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ المصاحبة والملاصقة، بما يفيد تصاحبكم السلامة، فهي لصيقة بكم ومصاحبة لكم، فلن يصل إليكم ما يضادها أبداً، ولتفيد المبالغة في السلامة، وكذلك المبالغة في التطمين، وقوة الترحيب لهم من الملائكة المرحبة بهم. بأنكم في أمن من أن ينالكم عذاب الله تعالى، وكذلك الأمن من الخروج من نعيم الجنات وما فيها من النعيم المقيم، وآمنين من الموت والخوف والمرض. فهي جامعة في دلالتها لخصال الأمن والسلامة، وامتناع وقوع الخوف كلياً، حتى القليل منه. اللهم اجعلنا وإخواننا المسلمين من المتقين الذين هم أهل الجنة، بفضلك وتوفيقك يا رب العالمين.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ لهؤلاء المتقين الذين هم أهل الجنة ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ فلهم كل ما يريدون ويشتهون من النعيم المقيم، بما يدل على سعة العطاء من غير تحديد، ليفيد الاطلاق الذي لا حدود له. فلهم ما تشتهيه أنفسهم وتستطيبه أعينهم. لهم كل ما يشاؤون من النعيم المقيم، بما يدل على سعة العطاء من غير تحديد له. ولإفادة الإطلاق الذي لا حدود له. ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وعند ربكم لكم أيها المتقون زيادة عن ذلك الذي وعدكم به من النعيم، وهو ما لم يخطر لهم به بال. بما يفيد تعظيم هذا المزيد والتشويق إليه ولأهل التفسير عن المراد بهذا المزيد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النظر إلى الله عَزَّ وجل. قال أنس بن مالك: يتجلى لهم الرب تعالى في كل جمعة. والثاني: أن السحاب يمر بأهل الجنة، فيمطرهم الْحُور. حكاه الزجاج. والثالث: أن الزيادة على ما تمنوه وسألوا مما لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. ذكره أبو سليمان

الدمشقي[١] وتلك الأقوال لا تعارض بينها، فتكون جميعها مجتمعة لهم في الجنة، وهي ما لم يخطر لهم به بال. فنسأل الله تعالى الجنة برحمته.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى بما لأهل النار من العذاب، وما للمتقين من النعيم المقيم، ينتقل السياق إلى المزيد من وعظ العباد، بما يحقق لهم خير الدنيا والآخرة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ يعظ ويُخَوِّف الله تبارك وتعالى المكذبين بأحداث ما كان من حال الأمم السابقة التي كذبت بالمرسلين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ فقد أهلكنا الكثير من الأمم السابقة التي كذبت مَن أرسلنا إليهم من المرسلين. بما يفيد التحذير والتهديد من أن يصير مصيركم أيها المكذبون برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كمصير وحال من سبق من المكذبين الجاحدين للحق، فاعتبروا بحال مَن كان قبلكم. وفي هذا مزيد من إقامة الحجة بما مضى من الأحداث السابقة التي يعرفونها، وبالتالي فلا يلوم الإنسان إلا نفسه بعد هذه الحجج والأدلة. فاعتبروا أيها الناس بمن سبقكم. مما يفيد أن العاقل هو الذي يستفيد ممن سبقه في كل أمر من الأمور، وأعزها وأغلاها أمور الآخرة، وما يتعلق بطاعة الله عَزَّ وجل.

وقد ورد البيان من الله تعالى بتعظيم وتكثير المشابهين لكفار مكة في كفرهم وعنادهم، حيث أفاد قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ كثرة الهالكين بعذاب الله تعالى ﴿ قَبْلَهُم ﴾ أي: من قبل الذين أُرسل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٩/٧)

إليهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وفي ابتداء السياق الكريم بدلالة ﴿وَكَمْ ﴾ ما يفيد الكثرة والتعدد للهالكين الذين أهلكهم الله تعالى ممن عصوا رُسُلَهم، وهذا استفهام يستثير والتأمل، ومراجعة النفس، وفق الأحداث التاريخية التي يعرفونها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ فكم وقع قبلهم من الهلاك المتعدد في كثرته للمكذبين العاصين، الذين غرتهم ملذات الدنيا، التي كانوا يعيشونها، بما يبين أن ذلك لم يكن علامة صحة وصواب لما كانوا فيه من الكفر.

وسَمَّى اللهُ تعالى كل أمة من تلك الأمم الهالكة بالقرن ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ والقرن هو: أهل كل عصر. أي الجيل الذي تتشكل وتتكون منه الأمة والجماعة من الناس في كل عصر، وفي الحديث ما يدل على ذلك (خير الناس قرني)[١] فالقرن هي الأمة المتمثلة في زمن من الأزمان.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة وقوة من كان قبلهم، مقارنة بقوة الْمُخَاطَبين من أهل مكة من المشركين آنذاك، فقال عَزَّ وجل ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ لقد كان الذين من قبلكم أكثر قوة وآثاراً باقية في البناء والتشييد للحصون والعمران والقصور والأبنية من حالكم، وكذلك ما كان منهم من إعمار الأرض بالزراعة، إذ حرثوها بتقليبها وزراعتها بعد أن هيؤوها بالحرث وجداول السقاء بالماء، وشيدوها بالقصور والمصانع، والزروع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم. حتى أنهم ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي: ساروا وطافوا وتقلبوا في الأسفار بين البلدان أكثر مما أنتم فيه من الأسفار. بما يفيد المبالغة في أسفارهم لقوتهم، وقوة قدراتهم التي منحها الله تعالى لهم. فإنه مع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وتمتعهم بها من عذاب ربهم عَزَّ وجل. فلا تغتروا بما أنتم عليه، وتظنون أنكم أهل قوة وشدة. فاسمعوا وأطيعوا خيراً لكم من أن يصيبكم عذاب الله تعالى.

ثم يثير عقولهم للتأمل والتدبر بسؤال تقريري، يقرر فيه سبحانه وتعالى أنه بالرغم من تلك القوة إلا أنهم لم يتمكنوا من الفرار من عذاب الله تعالى لهم ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ فهل كان لهم من ملجأ ومفر من حكم الله تعالى وقدرته؟ فهل نفعتهم وأغنتهم تلك القوة؟ فهل أغناهم ما جمعوا وشيدوا؟ فرد ذلك عنهم عذاب ربهم عَزَّ في علاه لَمَّا جاءهم وحل بهم العقاب. فكذلك أنتم، فإنه لا مفر ولا محيص لكم ولا مناص إن حل بكم عذاب ربكم. فاستجيبوا لما جاءكم من الحق قبل أن يحل بكم ما حل بمن سبقكم من المكذبين.

وهذه موعظة عظيمة من الله تعالى، بأن لفت انتباههم إلى من سبق من الأمم المكذبة التي يلزمهم أخذ العبرة منهم، حتى لا يصيبهم ما أصابهم من العذاب الشديد. وهي موعظة شاملة في فوائدها، بأن لا يغتر

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١) برقم (٢٦٥٢)

الإنسان بماله، ولا بصحته، ولا بقوة ما عنده، ولا بعلمه وخبرته، فيتعالى ويتكبر، فإن الله تعالى قد يعاقب الجاحد المتكبر بأشد العقوبة التي تسلب منه قوته التي يعتمد عليها ويتفاخر ويتباهى بها، ظاناً بأنها تغنيه عن طاعة ربه، والامتثال له عَزَّ في علاه.

ثم يقرر سبحانه وتعالى للمُخَاطَبين بأن عليهم أخذ العبرة مما أخبرهم به مما يعلمون من هلاك من عاند فكفر من الأمم السابقة. فقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أن فيما ساقه لكم ربكم مما وعظكم به لعبرة لأصحاب القلوب الواعية، والعقول السليمة الصحيحة. فيقرر بذلك تبارك وتعالى أن فيما ذكره من حال الأمم السابقة لذكرى يتذكر ويتعظ بها أصحاب القلوب الواعية السليمة. وقد حصر سبحانه وتعالى جانب التذكر المفضي للاعتبار والعمل بطاعة الله تعالى فيمن له قلب واعي، وسمع حاضر. فقال تبارك وتعالى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ فالذي يتذكر، وينتفع، بالانقياد والطاعة بما علم من الحق هم فقط من اتصف بهذه الصفات.

فالصفة الأولى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ وهو القلب الحي الذي يعتبر بما يسمع ويرى، وهم أصحاب العقول الصافية الصحيحة، الذين إذا أدركوا الحق عملوا به، ولزموه، وتركوا الباطل وابتعدوا عنه، وأبغضوه. مما يعطي دلالة بأن كل منغمس في الشهوات والشبهات فإنه ليس من أولي القلوب الحية السليمة، فلو كان لبيباً لما ترك لشهواته وشبهاته أن تلعب به، وتأخذه في المترديات. كما يفيد ذلك أن كل متمسك بأهداب الدين وفق شريعة الله تعالى هو شخص له قلب حي لبيب، يتأثر بالصواب فيتبعه، ويتأثر بالقبيح فيتركه ويبتعد عنه، فإذ أدرك الحق اتبعه، وعض عليه بالنواجذ. مما يبين أهمية القلب، وأهمية صحته، وأهمية العناية بتغذيته بالتدبر والتأمل والعلم النافع، اللهم اجعلنا من أولي الألباب الذين يتذكرون بالعلم والعمل وفق ما أمرت وشرعت، بمنك وفضلك يا كريم.

والصفة الثانية: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أو أصغى بسمعه لما أخبرنا به من حال الأمم المكذبة، وما ورد له من الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وهو في حالة الوعي والتدبر. فيلزم مع السمع لما قال الله تعالى أن يكون حاله ﴿شَهِيدٌ ﴾ وهي حالة الوعي والتدبر، والرغبة في الاستفادة والاتعاظ. فلا يستمع وهو يحدث نفسه عن كيف يرد ويصد. وإنما يستمع وهو في حالة التأمل فيما يسمعه. بل يستمع وهو غير مشغول الذهن بالباطل. فيستمع بنية الاستفادة مما يعظه الواعظ به. فيقرر البيان الكريم في قوله تعالى ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أن من كان له هذا الشأن فإنه حتماً سيتذكر

ويتعظ. وذلك لقوة البراهين والأدلة التي لا يعدل عنها إلا ملته بلهوه، أو متعال ومستكبر بكبريائه. وذلك لقوة ما أبانه وأوضحه الله تعالى من الحق للعباد بالأدلة والبراهين العظيمة الجليلة، فلا يزيغ عنها إلا هالك.

وقد بدأ السياق الكريم باسم الإشارة المسبوقة بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ وكان الاستهلال بنون التوكيد التي تؤكد ما بعدها من الإخبار بدليل قاطع على الشأن الذي لا شك ولا ريب فيه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: إن في ذلك الإهلاك للأمم المكذبة بالمرسلين. ثم أعطى اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التعظيم لما سبق من الآيات التي تناولت إهلاك الأمم السابقة التي كذبت بالمرسلين. وأعطت دلالة ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ أن فيما تم ذكره لكم لتذكرة كافية بما يجب على الإنسان من السمع والطاعة والاتباع. وفي كونها ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ دليل على أنها تُذَكِّر بما هو في الفطرة من التوحيد، والمعرفة السابقة بأحوال الأمم الواعظة له. وقد أعطت دلالة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أهمية هذا القلب، وأنه محور تفكير الإنسان، وأنه الموجه لإرادته بالقبول والرفض. وأنه محل العواطف، ومحل التأمل والاعتبار. كما أفاد قوله تعالى ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ بيان العلاقة بين السمع وبين حضور الذهن، وعدم شروده هنا وهناك حين الاستماع. فلن ينتفع السامع بسمعه، وبما يسمع إلا إذا جعل مع السمع الانتباه، بحضور الذهن، وعدم تشتيت العقل بالشرود عما يسمع في أفكار تُبعده وتجره عما يتلقاه من الحق والخير.

وقد أفاد حرف ﴿ أَوْ ﴾ من قوله تعالى ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ التقسيم كما ذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن موقعها للتقسيم. لأن المتذكر إما أن يتذكر بما دلت عليه الدلائل العقلية، من فهم أدلة القرآن، ومن الاعتبار بأدلة الآثار على أصحابها، كآثار الأمم السابقة. وإما أن يتذكر بما يبلغه من الأخبار عن الأمم[1] فهما أداتان للعلم والاتعاظ. مما يفيد أن هناك حلتان وطريقتان ووسيلتان للاستفادة: إما بواسطة القلب ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فيتدبر بنفسه ليصل إلى ما يجب، وهو التعليم الذاتي. أو الطريقة الأخرى عن طريق التلقي، وهو الاستماع الحاضر، بالانتباه والتبصر والتأمل فيما يُقال له، وهو قوله تعالى ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وفي هذا فائدة علمية عظيمة أنه لا يمكن أن ينتفع الإنسان بما يسمع وهو لاهي، أو أن ذهنه مشغول بغير ما يسمع، أو مشغول بكيفية الرد على ما يسمع، بالطعن فيه. ولذلك من الأهمية بمكان ابتداء

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٥٣/١٠)

الكلام بما يشوق المتلقي، فإن كان له قلب، أو استمع وهو حاضر الذهن فسوف يستفيد، وإن كان لاهياً فسوف يفوته فائدة ما سمع.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى تعليمهم ووعظهم ببيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى فيما خلق. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ وابتدأت الآية الكريمة بأداة التوكيد المسبوق بالقسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ والذي أفاد القسم المؤكد لما بعده تأكيداً متحققاً للخلق. وهذا الأسلوب أبلغ من تجريد الفعل من هذا الحرف البياني البديع. فقد أكد هذا الحرف تحقق الخلق للسماوات والأرض في ستة أيام. وما أصاب ربكم إعياء نتيجة ذلك الخلق العظيم.

فبدأ السياق العظيم ببيان الخلق، ولفت الانتباه إليه بالتأمل والتدبر، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ لقد خلق ربكم السماوات السبع، والأرض وما بينهما من الخلائق في ستة أيام. فربكم هو الذي خلق وأبدع وأوجد السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات بعد العدم في تلك الأيام المعدودة. ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة [١] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٢] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة واحدة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى للعباد قدرته التي لا ينتج عنها شيء من المشقة، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ وما مسنا ولا أصابنا شيء من الإعياء والنصب والتعب. مما يفيد أن من استطاع خلق هذا الكون بهذه الدقة والعظمة، من غير جهد، ولا تعب فإنه قادر على كل شيء، ومن ذلك إحياء الموتى، وحسابهم ومجازاتهم، بل هو أسهل وأيسر من خلق هذا الكون.

وقد جمعت الآية الكريمة الإيجاد والتدبير، ففي قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ الإيجاد والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٥/١٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٢)

السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما فوقها وما حملت وما حوت، و قد جمعت دلالة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يستطيع مشاهدته، فغاب عنه، فمما يشاهده الإنسان الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما يحسه الإنسان من الرياح والهواء، ومما لا يراه كالملائكة، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، فَقَصُرت حواسهم عنه، وأما كلمة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. وأكدت كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما نراه كالشمس والقمر والنجوم، ومما لا نراه، وما نحسه ولا نراه كالهواء.

كما أن في هذا البيان من الله عَزَّ وجل وبهذا الأسلوب، ما يفيد رحمته بالعباد، إذ يبين لهم بكل وجه ما يُوجِب عليهم الطاعة والامتثال والتصديق بالغيب. فلم يعاجل المكذبين بما يستحقون. مما يعلم عباده المؤمنين ما يجب عليهم من الحكمة والتراحم حين دعوتهم لغيرهم للإسلام، وحين تعاملاتهم فيما بينهم ومع غيرهم. كما أن في ذلك بيان لمنهج القياس في التعليم، بقياس كمال القدرة بالمشاهد والمحسوس على ما غاب من المغيبات. ففي ذلك قياس القدرة على البعث بعظيم القدرة على ما يشاهده العباد من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، بما يتعامل به مع قومه من الصبر، ولزوم ذكره لربه عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فتحلَّى بالصبر على قومك أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر على ما يقولونه من الردود الباطلة، والكلمات البذيئة، والوصف القبيح. بما يُعَلِّم الأمة أهمية الصبر، وعدم الاستعجال، أو اليأس، بل إن أمور الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى الصبر على المكابرين والمعاندين، وما يقولونه من الأقوال السيئة. بل إن جميع أمور الحياة مبنية على الصبر. فمع عظيم قدرة الله تعالى في حسم الأمر معهم إلا أنه يتعامل معهم بالحلم والرحمة، والتي أوصى بها رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويضيف سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم مع الصبر الإكثار من ذكره لربه سبحانه وتعالى. فقال جَل جلاله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به صباحاً ومساءً. فشمل التسبيح قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم. أي: واذكر ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بكثرة التسبيح خاصة في هذين الوقتين. ويشمل ذلك الصلاة، بل هي الأساس لما في الصلاة من التسبيح والتنزيه لله تعالى.

قال الطبري رحمه الله تعالى: وصلِّ بحمد ربك صلاة الصبح، قبل طلوع الشمس ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ وصلاة العصر قبل الغروب[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الظهر والعصر[٢] وفي تعيين هاذين الوقتين دليل على منزلتهما عند الله تعالى. وأن لله جَلَّ جلاله تخصيص ما يشاء، وتشريع ما يشاء. وعلى العباد الطاعة والامتثال.

وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به في اسمائه أو صفاته، أو في ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[٣] فالتسبيح هو التنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تنزيه تعظيم. فسبحانه وتعالى مقدس ومنزه ومطهر في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، وأحكامه وأقواله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي يناسب ألوهيته وربوبيته وعظمته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه، وغير ذلك مما لا يليق به عَزَّ في علاه.

ومنطلق التسبيح يكون من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقد العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويُصدقه القول به، وكذلك العمل والتطبيق بشريعته، وبالبعد عن الشرك والرياء ونحوه، إضافة إل ما يلهج به اللسان من المحامد. وكذلك يجتمع معه الفعل، كالصلاة، لأنها ذكر، لِمَا فيها من التسبيح والتكبير، وتجريد أدائها من الشرك والرياء، وإخلاصها لله تعالى وحده لا شريك له. فيستحوذ الذكر على القلب، بانشغاله بما هو فيه، لأن ذكر الله تعالى يكون ذكراً إذا صَدَّقَه القلب. والذكر يأتي بمعنى عموم العبادة.

ثم يضيف سبحانه وتعالى من الأوقات ما يخص الليل، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وفي هذا التخصيص ما يدل على أهمية العناية بالتسبيح فيما عينه تبارك وتعالى على وجه الخصوص ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: ومن بعض أجزاء الليل، شيئاً من الليل، فأمره بالتسبيح ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ويشمل بذلك صلاة المغرب التي هي أول الليل، وكذلك صلاة العشاء. وما يكون من صلاة التهجد. فعن مجاهد رحمه الله تعالى أنها صلاة الليل كله[٤] ثم يعين سبحانه وتعالى القيام بالتسبيح نهاية كل

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٧/٢١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٠/٧)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٠/٧)

صلاة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: التسبيح بعد نهاية كل صلاة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة[1] فدبر كل شيء نهايته. وفي تعيين هذه الأوقات من الله تعالى ما يدل على منزلتها عنده عَزَّ وجل. وأن لله جَلَّ جلاله تخصيص ما يشاء، وتشريع ما يشاء. وأن على العباد الطاعة والامتثال.

ويستمر الخطاب من الله تبارك وتعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، مذكراً له ولجميع العباد بيوم البعث، والذي يختم به جَلَّ شأنه سورة: ق. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ استمع صيحة يوم القيامة، حين ينادي بها منادينا من موضع قريب من الخلائق. فليس عنهم هو ببعيد ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾ فذلك اليوم هو اليوم الذي يخرج فيه الناس من قبورهم. حين يسمع فيها الخلائق الصيحة المهولة من عظمتها، التي هي صيحة البعث. تلك الصيحة الكائنة ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الذي لا شك ولا ريب فيه ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾ فذلك اليوم هو اليوم الذي يخرج فيه الناس من قبورهم. ثم يقول تبارك وتعالى مبيناً أن ذلك الشأن العظيم له وحده لا شريك له فيه ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ إن إحياء الأموات هو لنا، ومن لدنَّا وليس لغيرنا في شيء، وكذلك لنا إماتة الأحياء ﴿ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ وأن مصير الجميع عائد لنا يوم القيامة.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكيفية البعث، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ حين تتشقق الأرض وتتفطر عنهم ﴿ سِرَاعٗا ﴾ أي: وهم مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ﴿ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ ﴾ فذلك البعث والجمع ﴿ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ على ربك يسير لا مشقة فيه، فكما كان الخلق الأول على الله تعالى يسير، فكذلك إعادة الخلق بعد الموت على ربكم يسير سبحانه وتعالى. كما قال الله تعالى في سورة النحل ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠ ﴾ فلا شيء ممتنع على الله تعالى، ولا عسير على الله عَزَّ في علاه.

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٧٣)

ثم يختم الله تعالى سورة: ق. ببيان عظيم عن علمه الذي يُطَمْئِن به الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحذر به المكذبين، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ نحن أيها الرسول أعلم من كل أحد بما يقوله أولئك المكذبون لك من ردود التكذيب والعناد ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ وما أنت في تعاملك معهم بسالك مسلك الجبابرة والقهر لهم على الإيمان والاستسلام لله تعالى. فنفى سبحانه وتعالى عن تعامل رسوله صلى الله عليه وسلم جميع مسالك الاستعلاء، والقوة، فأثبت له حُسن التعامل معهم. وأيضاً أفادت أنه ليس مفروض عليك أن تجبرهم على الطاعة والامتثال. لأن لكل إنسان ما اكتسب. كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فكل نفس بما كسبت رهينة.

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فاستمر في تعاملك معهم بالتذكير لهم بآيات القرآن العظيم. فسيتعظ بالقرآن ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ سيكون الاتعاظ من عبادي الذين يخافون وعيدي بالعذاب لمن استكبر عن دينه. وأما من تمادى في كبريائه وعناده فلا تنشغل به. فمهمتك تنحصر في الإبلاغ فقط. مما يبين أن من كفر بعد سماع الحق فهو إنسان عنيد، لا ﴿يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ الله تعالى. وأن من استجاب للحق فهو طالب للحق ﴿يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ربه عَزَّ في علاه. فهو خائف من عذاب ربه عَزَّ وجل، وراجياً رحمته تبارك وتعالى. كما يدل ذلك على اختلاف الناس وتباينهم في قبول الحق من عدمه. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته، وأن يُحسن خاتمتنا، إنه هو الرحمن رحيم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة ق. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.